الطريقة الصوفية مفاهيمها وملامحها

ط. عاشوري أحمد

جامعة تلمسان

الملخص:

بعد أن كان التصوف نظريا، وجد نفسه ممثلا في مؤسسة تدعى الطرق الصوفية وكذلك الزوايا، غير أن الطرق الصوفية شكلت أيضا منحى منفلت من إسار المؤسسة الدينية، وكان القرن العاشر هجري لدى أغلب الباحثين هوتاريخ انبثاقها وظهورها، كما أنها تمثل في الوقت ذاته أهم حلقة في التاريخ الثقافي الديني.

Résumé :

Après cela, il était théoriquement se trouvait représenté par l'institution appelée les ordres soufis et aussi (zaouïa),mais les soufis également formé , résumé incontinent à la gauche de l'establishment religieux et était le dixième siècle hégire parmi la plupart des rechercher et d'émaner et représente en même temps l'histoire culturelle le plus importante de épisode religieuse.

تمهيد:

تتباين وتختلف الظاهرة الطرقية في الإسلام منذ تاريخ نشأتها سواء عند القدماء أوالمحدثين، رغم عدم تبلور أركانها النظرية والعلمية خاصة في مرحلة تاريخية معينة، أغلب الظن أنها قبل سنة 450 للهجرة، حيث يعد ما بعد التاريخ المشار إليه وبالتحديد بين سنتي 450ه و650ه تاريخ اكتمال الظاهرة وانتشارها، الذي لم يكن في تصور الباحثين بالنشأة اليسيرة والخالية من العوائق والصعوبات، وهي بهذا تكاد تكون بطبيعتها التاريخية منحى منفلت من إسار المؤسسة الدينية، إنه بحق بالنسبة للظاهرة بمثابة المخاض الثقافي والاجتماعي العسير.

ولذا يمكن أن نعتبر الأوضاع الثقافية والاجتماعية في عصر من عصور التاريخ أحد أهم توالد الظواهر، والتي قد تكون متشابهة ومتماثلة أحيانا، ومختلفة أحيانا أخرى، والذي يكون سبب الاختلاف فيها الأفراد والجماعات المنتمية لمثل هذه الظواهر.

لقد ولى عهد الاهتمام بالظاهرة الطرقية منذ زمن بعيد عند بعض المؤرخين لاسيما عند المجتمعات المغاربية لصلتها الوثيقة بمقومات حياة هذه المجتمعات التي تتسم بالتعدد والتشابه والخصوصية كذلك، يكمن هذا على الأقل في حقلها الدلالي السوسيولوجي كمفاهيم "السلطة" و"القبيلة" و" الزاوية" أوغيرها من المفاهيم التي تخصها وحدها.

ولعل أهم صبغة تكمن في صبغته الدينية الحساسة التي تتطلب بالتأكيد سعة اطلاع وقدرة على مختلف جوانبها1، فهذه الجماعات الدينية تستحق التنويه والاهتمام على الأقل لصياغة معتقدها الخاص بها2.

نتفق مع الأستاذ التليلي العجيلي حينما يقول بأن الطرق الصوفية من حيث وجودها وتنظيمها سابقة لظهور الأحزاب السياسية في المجتمعات المغاربية، لا لشيء إلا لأنها ضاربة في جذورها بعمق في مثل هذه المجتمعات التي لم تكن تعرف آنذاك حتى معنى كلمة "سياسي".

إن الرابطة الروحية بما تمثله من لحمة بين الأفراد والجماعة، جعل لهذه الظاهرة تفسيرا وتعليلا،بالرغم من ضبابية المفهوم إلا أننا يمكن أن نعتبر على سبيل المثال الصلوات والتراتيل باعتبارها طقس منظم، إحدى أشكال الوثاق بين أفراد هذه الجماعة التي توطد بها أواصرها خاصة عندما تؤدى هذه الطقوس جماعة، وتكون بالتالي الرابطة الروحية المنشودة من قبل هذه الفئات الاجتماعية

مهما كان منشأها حتى ولوكان من خلال أزمة روحية أوتهميش ثقافي أوأي سبب أخر، لتزيد في تعزيز تلك الرابطة الاجتماعية الجديدة بحكم التفاعل فقط.

كما أنها تدعم تلك الرابطة الروحية من خلال طقوس أخرى تخلقها هذه الجماعة التي تنتمي إلى طريق صوفية ما، كالأذكار الخاصة بها، والمدائح الدينية التي تكون في إبداعاتها وحتى وإن كان في مثل سلوكها ورموزها ما تعترض عليه الشريعة، فهي في النهاية تريد أن تحفظ ما يعرف سوسيولوجيا ب"الولاءات التحتية"هذه الولاءات التي تأتي في الأغلب قبل الولاء للأمة أوالدولة.

هناك من الباحثين والمؤرخين من يعتبرون أن القرن العاشر الهجري هوالذي بدأ يظهر فيه ما يسمى الطرق الصوفية، التي قامت على مبدأ تحزيب – إن صح هذا التعبير- الأتباع وإعطائهم العهد والمواثيق للشيوخ، والالتزام بطاعة الله أولا ثم طاعة الشيوخ، وحتى نستطيع أن نلم بجوانب هذه الظاهرة، فسنذهب بالتدرج في محاولة معرفتها ومعرفة خصائصها ومميزتها، وما تحتويه من معطيات ومعلومات وكذلك تساؤلات، لذا سيكون لزاما علينا أولا إعطاء تعريف وتحديد مفهوم الطريقة.

1- تعريف الطريقة:

جاء في لسان العرب لابن منظور أن الطريقة في اللغة تطلق على السيرة والمذهب والحال 3، يقال هوعلى طريقة حسنة أوطريقة سيئة.

واصطلاحا هي اسم لمنهج أحد العارفين في التزكية والتربية والأذكار والأوراد أخذ بها نفسه حتى وصل إلى معرفة الله، يقول الله تعالى "وأن لواستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا" (سورة الجن الآية 15- 16).

وحين نتكلم عن الطريقة الصوفية بالتحديد فنحن نقصد بذلك تلك المدرسة التي يتم فيها التطهير النفسي والتقويم السلوكي للمريد- الطالب

أوالتلميذ- عن طريق الشيخ وهوالقيم أي بمثابة الأستاذ الذي يقوم بذلك الجهد التربوي، في تلقينهم الأذكار بأسلوب يراه مناسبا هولمنهجه وطريقته ووفق المذهب الفقهي أوالعقائدي المنتمي إليه أوالمتأثر به.

لقد مثلت الطرق الصوفية أحد أهم مظاهر التواصل الروحي في مجتمعاتها وساهمت كذلك بدور فعال في توطيد العلاقات بين دول الجوار كالعلاقات الجزائرية التونسية أوالجزائرية المغربية أوالجزائرية الليبية، من خلال شيوخها الذين كانوا كثيري التردد على هذه الدول سواء بهدف الاستزادة العلمية أوتوطيد أواصر المحبة مع إخوانهم، بغية تعزيز وحدة "الانتماء الديني".

إن الحديث عن الطرقية يفضي بنا إلى تتبع معناها الاصطلاحي المتعدد، ففـي الأدبيات قد نجد لها مبرر في الفلسفة الصوفية حيث يقول محمود عبد الحليم" أن الطريقة هي الخط الذاهب من محيط الدائرة إلى المركز، وكل نقطة على محيط الدائرة هي مبدأ الخط، وهذه الخطوط - التي لا تحصى وتنتهي كلها إلى المركز- هي طريقة مختلفة، ومهما اختلفت هذه الطرق فالهدف واحد، لأنه لا وجود إلا لمركز واحد وحقيقة واحدة**4**.

فالطريق إذا هوعهد بين المريد والشيخ يحاولا أن يجسد فيها توبتهما من المعاصي وترك الكبائر، والبحث في الذات النفسية عن الطهارة الداخلية والارتقاء الروحي والكثير من الصفاء الداخلي، ولذلك عدت بالعموم مجموعة أفراد من الصوفية يتبعون شيخ الطريقة ويخضعون لنظام دقيق في السلوك الروحي، ويحيون حياة جماعية يتخللها اجتماعات دورية في مناسبات معينة ويعقدون المجالس في الزوايا والرباط بصورة تكون منتظمة، ويعدها البعض ملجأ عاما للجماهير، بينما تمثل للمريد المنهج الذي عليه أن يتبعه لتحقيق الكمال الديني الذي هوثمرة من ثمار الجانب الأخلاقي في الإنسان.

2- ملامح الطرق الصوفية :

اختصت هذه الظاهرة أوتميزت كما تتميز كل ظاهرة بخصائص معينة، لما شكلته من حلقة هامة في تاريخنا الثقافي، وشهدت هذه التجربة الجماعية أوجها بالخصوص في المجتمعات البدوية أوالقبلية التي ليست رهينة التقليد الآلي، بل كذلك هي مجتمعات تتصرف وفق قواعد تواصلية معتمدة في ذلك على التاريخ والذاكرة والحوار.

أثناء ما مر به التصوف في مراحل متعددة، شأنه في ذلك شأن الحركات الدينية التي انتشرت في المجتمعات الإسلامية، كان عليه أن ينتج مفاهيمه ويبدأ في مأسسة نفسه ويوجد شكلا لإسلامه "إسلاما طرقيا" وهوما عرف به في ما بعد، جاعلا من ذلك الطريقة الصوفية جسما اجتماعيا له، هذه الأخير نقصد الطريقة الصوفية تتميز بأسماء شيوخها وهي سمة مميزة للكثير من الطرق الصوفية ليس الجزائرية فحسب بل حتى المغاربية والمشرقية.

لاشك أن أهم الفاعلين في الطرق الصوفية، هما الشيخ والمريدين، بل أن استمرارها وديمومتها يرجع لهذين الفاعلين، واستمرار الفكر الخاص بها داخل هذه الجماعات لا يرد فقط إلى ديناميكية الفكرة نفسها، مهما كانت قدرة النسق الإبسيتمولوجي الذي تتأسس عليه، إذ لابد للفكرة من أكتاف تحملها ومن هيئة اجتماعية تسيغها5.

يعتقد الصوفي اعتقادا جازما بأن هناك عالما روحيا غير محسوس يتجاوز عالم الحس والعقل معا، عالم غير مرئي مليء بالرموز والإشارات والرؤى، يمكن الاقتراب منه عن طريق المعرفة القلبية أوالإلهام الروحي، حيث يضع المتصوف نفسه في أعلى درجات الإيمان، لأن ما يؤسسه التصوف هوطريقة معرفة الحقيقة الدينية التي هي حقيقة ذوقية6.

وأن نتعرض لمسألة الطرق الصوفية دون أن ننبه للوظيفة الداخلية الموجه المباشر لأعضائها من خلال التبادل المعرفي أوالتلقين الذي يتولاه الشيخ من جهة والاستعداد الكامل الذي يبديه المريد من جهة أخرى، هذا المريد الذي يكون قد انتسب إلى الطريقة طواعية، والتي ستكون في نهاية الأمر بمثابة "عائلته"، التي ستسمح له بتكوين شبكة من العلاقات الاجتماعية يحقق بها أهدافه الروحية المنشودة وكذلك الدنيوية المتوخاة.

2- 1- شيخ الطريقة (المركز):

إن قاعدة "من لا شيخ له فشيخه الشيطان"، هي قاعدة كل طريقة صوفية، التي لا تخلومن شيخ –مركز- يمثل صمام الأمان بالنسبة لها وأهم دعاماتها، وبدونه لا يستقيم أمر المريد ولا الطريقة، ولا يمكن أن تقتصر مهمة الشيخ في أدوار تلقينية بل هناك أدوارا اجتماعية نذكر منها معاونة المحتاجين ومعالجة المرضى،ناهيك عن التنشئة الاجتماعية للمريدين أوحتى الأتباع من خلال تعليمهم أمور دينهم ودنياهم، فهوبمثابة الملقن والناصح والمرشد، والأستاذ لدرايته بالحاجات النفسية التي يحتاجها المريد، قال ابن عطاء الله السكندري "من لم يكن له شيخ يوصله إلى سلسلة المتابعة فهوفي الطريق لقيط لا أب له، وفي المعرفة دعي لا نسب له7.

حتى يستطيع الشيخ أن يكون القيم والأستاذ الذي يقوم بعمله مع الطلبة والمريدين، لابد من توفر شروط ومواصفات، يحدثنا عنها الإمام الجنيد بوضوح ويقول" لا يستحق شيخا حتى يأخذ حظه من كل علم شرعي، وأن يتورع عن جميع المحارم، وأن يزهد في الدنيا، وألا يشرع في مداواة غيره إلا بعد فراغه من مداواة نفسه، وحتى يكون على علم يهدي به العباد فإذا مرض مريده بسبب شبهة في علم التوحيد داواه، وإذا تحير في مسألة من مسائل الفقه أفتاه، ويشترط

أن يكون لديه القناعة بالغنى عن الناس، وأن يخاف ويخشى من المعاصي والأدناس وأن يلازم العمل بالكتاب والسنة، يزن أقواله وأفعاله بميزان الشريعة والطريقة فإن رأيت فيه شيئا مخالفا للشرع فاتركه حتى وإن كان ذا حال صحيح، فما عليك في رده بحكم الشرع من بأس ولا تتخذه مرشدا.

فشيخ الطريقة يسمى أيضا خليفة الورد، ومولى الطريقة، وهويمثل رئيس في إطار هذه المؤسسة من خلال الإشراف عليها والإخلاص كذلك لها، وهي تعطيه بالمقابل سلطة دينية وروحية مقدسة، يضمن بها أومن خلالها "الشرعية" أمام الأتباع والمريدين، وحتى أمام الطرق الصوفية الأخرى، فالشيخ هوالذي يشرف على التعاليم في الطريقة أوالزاوية وتصدر منه كل المعارف والقرارات، هوقطب الرحى في الحقل الطرقي بل ويعتبر شرط ضروري في هذا الجسم الاجتماعي، من خلال دوره المتمثل في الضبط، فإذا كان على المستوى الاجتماعي يمثل علاقة طالب علم بشيخه، فانه على المستوى الإيديولوجي تختلف هذه العلاقة، وتصبح علاقة تابع بزعيم على الشاكلة الحزبية أوالطائفية.

نشير هنا أيضا إلى المفهوم الفيبري الكاريزما الذي يجب أن تتوفر في من يقود هذه الطريقة، حيث يجب أن يمتلك أوأن يكون ذوكاريزما، فهي ضرورية لتلتف الجماعة حوله، وهي خاصية لا تكون فقط في مؤسسات الطريقة بل حتى في مؤسسات أخرى، هذه السلطة الكاريزماتية لا تستمد مشروعيتها في أثناء التأسيس من المعايير القرابية المتوارثة، بل من الخصائص الإنسانية الخارقة للعادة التي يعتقد الناس أنها متوافرة لدى شخص معين كامتلاكه قدرات روحية وفكرية خاصة8، مثلا البركة التي يسميها كليفورد غيرتز ب الكهرباء الروحية، وقدرته على منحها لمريديه وخدامه وأتباعه، في حين تعترف جل الطرق الصوفية

بالسلطة الروحية للشيخ، بل يعد أصلا ثابتا من جملة أصولها كونه يمثل دور الوسيط بين الله وعباده.

ويكفي أن تذوب هويتها الجماعية ضمن هوية فردية، ما يحقق له مجدا شخصيا خاصة إذا ظهر وأنه يمتلك كرامات، ناهيك على أن الشيخ في حد ذاته ضرورة دينية من جهة وضرورة تربوية أخلاقية بها يحدد آداب المريد والأخلاق التي يجب أن يكون عليها، من جهة أخرى هي ضرورة لزومية في الطريقة الصوفية التي هي في النهاية مجموعة من المريدين يبايعون شيخا يعتبرونه المرشد الروحي لهم.

الشيخ ضروري للمريد ليس فقط كمعلم بل أيضا كقائد تجب طاعته بشكل مطلق، طاعة ظاهرة بالجوارح وطاعة باطنة في القلب، حيث إرادة الشيخ الحرة هي التي تملي على المريد القواعد الخاصة التي يجب عليه إتباعها، فضلا عن تقرير مبادئ الطريقة وتعاليمها وطقوسها ناهيك عن المسؤولية المباشرة التي يملكها في تسير الطريقة أوالزاوية، فهوباختصار شديد صاحب الحل والربط فيها9.

وأن يكون ذومكانة مرموقة لدى الأتباع، ويحتل منزلة عالية في وسط مجتمعه ويحاط بهالة قدسية، وينسج حوله القصص والأساطير، فهوعرضة لكثير من الإغراءات والأخطاء التي قد تبقى وصمة عار لا به بل حتى لأقاربه وعشيرته، فنحن –مهما كان- لم نخرج بعد من تفكير أوفكر القبيلة، وقولنا هذا نابع مما حدث لبعض شيوخ الطرق الصوفية إبان الحقبة الاستعمارية، أين عمل الاستعمار على توظيفهم لمصالحه الخاصة، فهوكان يعلم طبعا بالاعتماد على الدراسات الأنثربولوجية الميدانية التي اقتحمت جل مناطق المغرب العربي لاسيما منها التي اهتمت على وجه الخصوص بالحياة الدينية لهذه الشعوب

والقبائل المتفرقة على هذه البلدان أين كانت فيها سلطة شيخ الطريقة أوالزاوية مطلقة على المريدين تمليها عليهم القيم والتعاليم والمبادئ الصوفية، إذ أن عمدة الأدب مع الشيخ هي المحبة له، فمن لا يبالغ في محبة شيخه –بحيث يؤثره على جميع شهواته- لا يفلح في الطريق، وهي محبة تقتضي منه أيضا أن يحب الأشياء من أجله، ويكرهها من أجله، لذلك عرف الاستعمار معنى هذه السلطة عند أتباع الطرق الصوفية ومدى تأثيرها حتى على القبيلة، ما جعل الأمر يبدوفي غاية السهولة لدى المستعمر، عندما عمد إلى استغلالها، وجعلها في خدمة مصالحه نظير امتيازات كثيرة، ولكن - وهذا للأمانة فقط- لم تستطع أن تنال مرادها وغايتها من كل الطرق الصوفية، التي كانت سدا منيعا في وجهه، بفضل شيوخها أولا، الذين كانوا يؤمنون بأن هذا المستعمر كافر يجب الجهاد فيه، من منطلق ديني محض بعيدا عن تلك المزايدات الوطنية والإيديولوجية، فالمتدين ينظر إلى اللامتدين –في المجتمع الواحد- بعين الريبة، فما بالك إذا كان هذا اللامتدين - طبعا من وجهة الدين الذي هوعند المتدين - من خارج مجتمعه وغازيا لبلده**10**.

إن ورع الشيخ وسمعته الطيبة والقوية، لها كل الفضل في البقاء على الطريقة متماسكة ولأن له تأثير كبير على مريده، فهذا لا يمنعه من المزيد من التقوى، الذي يتمثل سلوكيا في التواضع لهم برفع الكلفة بينه وبينهم، مع أخذ بعض المساحة بينه وبينهم كذلك مثل عدم النوم معهم ولا حتى الأكل، حيث يكون أحد المريدين خادمه الخاص، يقوم بإحضار الطعام له ويرقد بالقرب من الخلوة وراء الباب، إذ قد يحتاج إلى خدمته، فالشيخ يقوم مقام الله في توجيه المريد....

وشيخ الطريقة أومولى الطريقة يكون في الأغلب حامل للبركة التي يقول فيها بعضهم بأنها ليست مفهوما دينيا وإنما عقيدة دينية بأكملها، فالشيخ هووريث شرعي لإمام الطريقة أوالمؤسس، كما قد يكون الشيخ وليا صالحا أوعالما مشهورا كالشيخ عبد الرحمان الثعالبي في الجزائر وأبي مدين في تلمسان وغيرهم**11**.

يذهب ابن عباد الرندي، وهومتصوف وصاحب مؤلفات في هذا الحقل المعرفي ك" شرح الحكم" لابن عطاء الله السكندري والرسائل الكبرى في التوحيد والتصوف وغيره، بعد أن استقر به المقام بعد طول تطواف إماما وخطيبا بالقرويين بفاس وبها توفي، حينما وافق القائلين بضرورة الشيخ في سلوك طريق التصوف، حيث يقول"الذي أراه أن الشيخ في سلوك طريق التصوف على الجملة أمر لازم لا يسع أحد إنكاره، وكان هذا من الأمور الضرورية"،بيد أنه يتكلم على نوعين من الشيوخ يواصل فيقول " لكن الشيخ شيخان، شيخ تعليم وتربية وشيخ تعليم بلا تربية (وربما هويكون السائد في وقتنا الحاضر)، فشيخ التربية ليس بضروري لكل سالك، وإنما يحتاج إليه من فيه بلادة ذهن، واستعصاء نفس، وأما من كان وافر العقل منقاد النفس فليس بلازم في حقه، وتقيده به من باب أولى، وأضاف، أما شيخ التعليم فهولازم لكل سالك، وكتب أهل التصوف مرجعها إلى شيخ التعليم، فالشيخ إذن لابد منه على كل حال، لأن الشيخ دليل على طريق الله تعالى بمنزلة الدليل على الطريق المحسوسة، فاعتماد الشيخ المربي كذلك هوطريقة الأئمة المتأخرين من الصوفية**12**.

لا يكتفي الشيخ بالتعليم والتلقين، بل السهر بكل جوارحه على تقلبات المريد خوفا من أن تنزلق به القدم نحوالعجب بالنفس، فبقوة تمرسه بالمجاهدة يكون الشيخ على قدر من العزم من أن يجعل المريد دائما مستعدا لتعلم طرائق

الصوفية، أهل التحقق في التوحيد الذوقي والمعرفة الوجدانية، وهذا ما نلمسه عند ابن خلدون عندما يبارك شيوخ الصوفية، ويدعومن أراد أن يحصل على المعرفة الحقيقية أوالحقة من أن يصاحب أرباب الصوفية، يقول"ولن يتوصل إلى هذا الحد من التطور الروحاني إلا من صاحب في هذه الحياة أرباب القلوب وطلاب الآخرة، الشيوخ الصوفية إذ هم للمريد وقاية ولطالب السلوك قوة وهداية13.

2 - 2- علاقة الشيخ بالمريد:

نادرا ما نرى في العلاقات الإنسانية، علاقة جد وثيقة، كالتي تكون بين الشيخ ومريديه وهي علاقة متبادلة مبنية على الاحترام والتقدير، يبتدئها الشيخ بأن يمتنع من كل رفع للكلفة في حدود ما تسمح به التقاليد الصوفية، فهومعلمهم الذي يجب عليه احترامه، وأن يلتزموا بالتنظيم الدقيق، التي يمكن أن تلخص روحه على نحورائع هي أنه إذا سافر الشيخ كان على المريدين أن يذهبوا يوميا إلى خلوته ليحيوها كما لوكان حاضرا14، ويزداد حرص الشيخ على مريديه، بأن لا يجعلهم عرضة للفراغ ولا الهوى وكأننا به يتماهى مع حرص الشيخ عبد القادر الجيلاني على أن يبتعد مريدوه عن كل ما من شأنه أن ينزل من مكانتهم الاجتماعية كالبطالة وسؤال الناس لذلك كان يحثهم على الاشتغال بالكسب والتجارة بشرط أن يراعوا الشرع وبمجمل القول أن من العلامات الرئيسية للتدين الإيجابي هي زوال امتداد شبح الفراغ في الحياة اليومية والالتقاء التوأمي بين الهدفين الدنيوي والديني، تجسيدا لقول علي كرم الله وجهه "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا".

لابد إذن للمريد من شيخ يعلمه طرائق الصوفية " أهل التحقق في التوحيد الذوقي والمعرفة الوجدانية، وذلك يكون في البداية إما بالاعتماد على كتب

الهداية الوافية بشروط النهاية والبداية كالإحياء والرعاية أويكتفي بالشيخ الذي يميز للمريد عند اشتباه الواردات والأحوال ومسائل تلك الطرق ومسالكها، فيكون له بمنزلة الطبيب للمريض ومنه تكتسي إحدى العلاقة الصحية العلاجية الوقائية، فكما يبدي الطبيب نصحه للمريض ويحرم عليه بعض الأكل والحاجات الدنيوية بغرض شفائه، فكذلك الشيخ يمنعه من الوقوع في المعاصي والمحاذير لنقاء نفسه، فالشيخ بقوة تمرسه بالمجاهدة قادر على أن يجعل هذا المريد مستعدا لاحتمال المطلع، جديرا بتميز السنن في الأحوال من البدع**15**.

لعلنا نكرر أحيانا غير أننا نبغي وراء هذه التكرارات الاضطرارية وضع استقلالية لكل عنصر عن الآخر، استقلالية لا تحد من ترابط الأفكار عن بعضها تباعا، كما هوالشأن في علاقة الشيخ بالمريد وهي علاقة متعدية ومتغيرة ففي مراحل يكون الشيخ ساهرا بكل جوارحه على تقلبات المريد خوفا من أن تنزلق به القدم نحوالعجب بالنفس ويسلك طرق الإباحة أوالتصريح بما لا يجوز التصريح به وفي مراحل أخرى أين يكون فيها الشيخ قد ذاق المقامات المختلفة يكون أكثر قدرة على أن يهيأ المريد لتلقي ذلك النور الذي يقذفه الله في الصدر على حد تعبير الغزالي**16**.

2- 3- المريد:

يطلق هذا الاسم "المريد" على كل متأدب بآداب الصوفية، ولا يجوز له أن ينتسب لغير مذهب التصوف، يقول القشيري في وصيته للمريدين" يقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب من المذاهب من ليس في هذه الطريقة**17**، وإذا تم وقبل المريد في الجماعة خضع لسلطة الشيخ المطلقة، ولا تختلف غاية المريد وهدفه عن شيخه بشكل عام ولا حتى عن أي جماعة صوفية رغم ما تبديه من أفعال ذات أهداف دنيوية كما يعتقد البعض إلا أنها في حقيقتها تكمن في الهدف الثابت الذي

لا يتغير وهومعرفة الله، ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي النهاية المطلوبة للسعادة18.

نستطيع أن نقول كذلك أن المريد هوتلميذ نجيب في رحاب المدرسة الصوفية والطرقية لأنه يتقيد بنظامها الداخلي وضوابطها بطواعية تامة، ومرد ذلك في حقيقة الأمر إلى تكوينه الديني داخل مجتمع أقل ما يقال عنه أنه يمتاز بعمق ديني، هذا ما أقره أيضا الفكر الاجتماعي المعاصر حينما قال بحضور الدين كظاهرة عميقة الجذور داخل الذات الفردية والاجتماع العام، وبكونها غير مرشحة للتلاشي في المستقبل القريب أوالمنظور، أضف إلى ذلك ما يمثله الدين - في أغلب مستوياته- ثقافة كاملة لشعب أوأمة أوحضارة.

وبغض النظر عن المنهج الذي يأخذه المريد عن شيخه وطريقة تلقيه للعلوم الدينية بالخصوص، والتي هي في الغالب تتشابه إذ يغلب عليها التلقين والحفظ ولكن الأهم في هذه المرحلة التعليمية ضرورة الصحبة أي مصاحبة شيخ مرشد أومرب مأذون بالإرشاد من الشيخ لإتباعه والاستسلام التام لإرشاده ووصاياه، للتمكن من قطع مراحل السير إلى الله عز وجل، فالسالك لا يستطيع السير وحده، هذا ما تلخصه كذلك مقولة من لا شيخ له فشيخه الشيطان، فالشيخ كذلك يرشد المريد إلى طرق تخلصه من رعونته النفسية وأمراضه القلبية.

لا يقتصر الأمر عند المريدين في تلقي العلوم الدينية وتعاليم الطريقة التي ينتمون إليها فحسب، بل تتعداه إلى أمور أخرى كتهيئتهم لأن يصبحوا قادة أوشيوخ من خلال تنشئتهم على كل القيم التي تؤهلهم لذلك كالمجاهدة والصبر والاجتهاد وغيرها من القيم، هذا الدور الذي تقوم به التنشئة الاجتماعية من شأنه أن يساعد المريد على التكيف مع البيئة أوالمجتمع الذي أصبح يعيش فيه، من خلال ترويضه وتعليمه آداب السلوك الاجتماعي لتتواءم مع نظام الطريقة

الصوفية كما أشرنا أنفا، فالجماعة الصوفية التي ظهرت عبر التاريخ الإنساني ترى أن الاتفاق في الاعتقاد والأفكار هوحجر الزاوية، وهوالذي يفضي إلى الشعور النفسي العام بالانسجام.

يركز المريد في التصوف العملي على بعض الممارسات الفردية والجماعية مثل حلقات الذكر والإنشاد والمدح وغيرها، بل في حرصه على هذه الممارسات يثبت لشيخه ولأصحابه مدى تمسكه بالزاوية أوالطريقة التي ينتمي إليها، هذا الولاء والانتماء لا يمكن النظر إليه على أنه أمر عادي وفقط، بل إنه يعطي الاستمرارية والإشعاع لهذه الطريقة، خاصة ذلك الجهد الذي يبذله المريدون في مواسمها الاحتفالية، أين يجتمع فيها شرائح دينية وثقافية واسعة، ولئن كان السؤال لماذا يتعب المريد نفسه في هكذا أمور دون غاية محددة؟ يبدوا محيرا لصاحبه خاصة إذا لم يكن ينتمي إلى زاوية أوطريقة ما، فهوبالنسبة للمريد يعد اللاسؤال أومجرد ترهة، ذلك أن قناعته تكمن- على الأقل عنده- في أن ما يحركه ويجعله يقوم بوظائفه تجاه جماعته هوالطاقة الروحية التي يعطيها له المقدس الإسلامي في صوره العليا ومستوياته القصوى بما يحتويه كذلك في النظام الصوفي، علم المجاهدة الأولى19.

بقي إلى أن نشير إلى نقطة في غاية الأهمية وهم "الطلبة"- بفتح الطاء- الذين يرغبون في الالتحاق بالطريقة، لا يتحولون إلى مريدين بمعنى الكلمة إلا القليل منهم كون رغبتهم وهدفهم هوالتعلم حيث يشترط فيه قبل ذلك السيرة الحسنة وحفظ شيء من القرآن الكريم ثم يجتمع الطلبة بطلب من المقدم وبحضور شيخ الطريقة فيقرأون الفاتحة للطالب الجديد ويدعون له بالخير والنجاح، طبعا بعد أن يقبل كطالب علم في الطريقة، هذا القبول يعتبر بمثابة بطاقة الانخراط

أوانتماء إلى الطريقة أوالزاوية، ومن ثم يصبح من طلابها ويعرف باسمه أوينسب إلى بلدته أومكان ميلاده أوقبيلته أوقريته.

وبعد انقضاء فترة تعلمه قد يصبح هذا الطالب مريدا في هذه الطريقة ويحـاول التدرج في سلمها حتى يستطيع أن يصبح يوما ما أحد مقدميها ولما لا شيخها، أويعود إلى بلدته ليعمل بها، بما حصله من علم ديني في إحدى مساجدها أوجوامعها وفي الأغلب يشتغل كمعلم قرآن أوقيم أوإمام للصلاة، لكن هذا لا يعني انفصاله أوانقطاعه عن الطريقة التي أهلته لهذا بل على العكس يبقى يكن لها عاطفة ومحبة لا تنقضي بصروف الدهر، حيث يعمد لزيارتها في بعض الأوقات ومنها يزور مشايخه ويتودد إليهم بالمحبة وأحيانا حتى بالهدايا، كما أنه لا يمكنه أن يتغيب عن مواسمها الاحتفالية، خاصة إذا كانت ممن تقوم بالاحتفالات الدينية، شأنه في ذلك شأن طلبة الجامعة والمدارس الكبرى، حيث يكنون كل الاحترام لأساتذتهم ولجامعتهم غير أنهم لا يستطعون إظهار ذلك لأنهم يفتقدون إلى ذلك الرابط الوجداني الروحي الخارجي والمادي أيضا، ولأن هذه المدارس والجامعات لا تقيم مواسم احتفالية أواحتفائية محددة بمناسبة معينة أوشخوص معينين، أي أنها تفتقد لذلك التقليد الذي تمتلكه الطريقة الصوفية بفضل فاعليها، ناقلي المعرفة الدينية شيوخها الذين يكونون في الغالب من ذوي النسب الواحد أوالقبيلة أوالسلالة، والذين يكونون محملين برسالة تربوية صوفية**20**.

وليكن، لا يطلب من المريد في رحاب زاويته أوطريقته وحضرة شيخه إلا الطاعة العمياء، بمعنى أن يكون مستسلما منقادا راضيا بتصرفات شيخه، وأن يوقره ويعظمه ظاهرا وباطنا، ولا يعترض على فعله، وإن بداله- نقصد فعله- ظاهره حرام فهوبهذه الصورة قد يشبه النبي، حتى أنه قيل "الشيخ في

قومه كالنبي في أمته "، كما لا يطلب من المريد شيئا ماديا مقابل تعلمه وأكله وإيوائه، فالزاوية هي التي تتكفل بجميع النفقات ماعدا كسوته، ولمثل هذه التربية إيجابيات وهي أنه تعوده على خشونة العيش "اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم كما قال عمر بن الخطاب، والاعتماد على النفس والصبر والحلم، إلا أن لها سلبياتها والتي تكمن في الأساس عدم تشكيل رأي والوقوع أسير دوغمائية الفكر الصوفي (الزاوية)، والإحساس التفكير بنفسه ولنفسه بل يفكر له بحيث يصبح كالآلة.

عندما تكلم أصحاب التصوف عن المريد الطالب وصفوه في الدرجة الأولى واعتبروها أولى الخطوات في التصوف عن المريد، وصاحبها صاحب وقت مجد في العبادة لطلب مراده ومقامه المجاهدات وتذرع المرارات، حتى أنه يلقب- نقصد المريد- بالمتجرد من ذاته، لذلك نرى كثيرا من الصوفية يصرون على اصطحاب مريديهم أينما حلوا وارتحلوا، حتى يظهر المريد وكأنه ظل الصوفي، هذا الأخير الذي يريد من خلال الاصطحاب أن يكتشف سره أوكرامته رغم أن كل ما يكتبه أويقوله ألغاز وإيماءات ورموز فقط، فهويدرك جيدا أن السر لا يوجد لكي يعرف وهولا يظهر لوعيه إلا بوصفه لغزا فقط، غير أن هذا اللغز لا يتطلب منا أن نعرفه بل أن نشارك فيه، وبالتالي ففضح المريد لأسرار شيخه على الخصوص، وسره الصوفي وحكاية الكرامة ليس مجرد أمر عادي، لأنه يشعر هذا المريد الماكر بامتلاك سر خفي يمنحه امتيازا عن باقي المريدين الأخريين، ويحظى بامتياز نفسه عند عامة الناس الذين يتداولون الخبر في كل مكان مع إسناده إليه، لكن هذه الشهرة والحظوة سرعان ما تنقلب على المريد فتفضح أسرار شيخه....، لتبقى الحكاية الصوفية هي الوحيدة التي تعيش، إن المريد الابن تمرد على الشيخ الأب وفي تمرده سجل موته، إذ لا حياة له خارج الدائرة الأبوية، خارج دائرة ما هوقدسي، إنه مكر الحكاية ويا له من مكر**21**.

2- 4- الإجــازة:

ويقصد بها الشهادة التي يسلمها الشيخ إلى الطالب عندما يتلقى عنه لفترة طويلة كل المعارف الدينية من فقه وأصول وسنة، وهي بمثابة تزكية علمية، وتسمى إجازة لأنها تجيز لهذا الطالب أن يلقن نفس المعارف التي تلقاها عن شيخه، ونظام الإجازة معروف في الأنظمة الإسلامية منذ أمد بعيد، وهي على أنواع، منها الإجازة المفصلة المسلمة للخليفة أوالنائب عند بعض الطرق، وقد تكون بالمراسلة وتأخذ أحيانا طابع الوصية، فالشيخ يكتب ويوصي ويشهد بأن خليفته فلان، وأنه قد منحه بركته وأورثه إياها، وأن هذا الخليفة هومحل ثقته وهومكلف من قبله في إعطاء الإجازة لغيره، وكذلك إعطاء الأوراد وإدخال المريدين في الطريقة يكون بتزكيته**22**.

كما تأخذ معنى آخر عندما تصبح كعبارة عن تصريح كتابي يتيح لحامله الإطلاع والدراسة في الكتب والمخطوطات والرسائل المتعلقة بشؤون التصوف، ولا يقتصر فيها على الانتفاع بدورها العلمي فقط، بل يتعدى الانتفاع بها بأمور أخرى، وكل شيخ لا يملك سندا أوإسنادا صريحا من الشيخ الذي قبله بوصية أوشهود مشكوك في مشيخته**23**، ولأهمية رتبة المشيخة التي هي أعلى رتبة في الطريق الصوفي، وأصل ثابت من أصول الانتماء لأنها أصل معرفي إيديولوجي ومؤسساتي عليه تبنى مؤسسة الزاوية، وجب كشرط ضروري على من يريدها أوأن يخلف شيخه، بعد الجهد الديني والدنيوي من إجازة شيخه.

أصبحت تعرف بشكل الإجازة بعدما انتهت الطريقة لأن تصبح دالة على الرعاية الإسلامية من خلال المعاشرة وعلى سلسلة من الوصايا الخاصة، يصبح الإنسان مريدا وبعدها يتلقى المريد البيعة أوالتقليد أوالشد أمام طائفة من الشهود ذوي المراتب من شيخ السجادة والمرشد والمقدم والنقيب والخليفة **24**، ومهما

اختلفت الأساليب عند معظم الطرق الصوفية، إلا أنها تتفق على الإجازة للمريدين وإعطائهم الحق في مواصلة السير إلى الله تعالى، سير تزكى فيه الأنفس والجوارح، وإذا اعتبرنا الإجازة بمثابة الاعتراف بمقدرة المجاز فهوفي نفس الوقت أسر المجاز لاعتراف آخر، وهوالاعتراف بفضل المجيز، ولعل قوتها تكمن أكثر من الشهادة الورقية في أنها تعطى من علماء ثقاة، فعدا أنهم رجال علم فهم قبل هذا رجال ذوأخلاق عالية وتربية.

الخاتمة :

فهل الحاجة باتت –اليوم- تتطلب الاستنجاد بالتصوف والزوايا، لأنها تقوم على الوسطية والاعتدال والبساطة وثقافة التسامح الذي بدأ يفقدها المجتمع، ولننظر إلى معدل الجريمة كمؤشر قوي، ناهيك عن مظاهر العنف الأخرى المتعددة والتي يكون في الغالب سببها تافه كما يحدث في الملاعب الرياضية وغيرها، حاجة إذن هدفها السعي من أجل التلاقي والائتلاف ونبذ الخلاف....

الهوامش والمراجع :

1- العجيلي التليلي الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881- 1939) منشورات كلية الآداب بمنوبة تونس 1992 ص13.

2- السواح فراس دين الإنسان - بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني- منشورات علاء الدين سوريا ط1 1996 ص53.

3- ابن منظور لسان العرب ج10 دار الفكر بيروت ط1 1410ه ص221.

4- محمود عبد الحليم المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبوالحسن الشاذلي دار مصر للطباعة القاهرة ص324- 325.

5- حسن مرزوقي الإسلام الطرقي ومستويات التأصيل دراسة مجلة عمران المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بيروت ديسمبر2012 ص17.

6- حسن مرزوقي نفس المرجع ص19- 20.

7- النجار عامر الطرق الصوفية في مصر نشأتها ونظمها وروادها دار المعارف

القاهرة 1983 ص25.

8- عبد الوهاب ولد محفوظ القبيلة في موريتانيا التأصيل التاريخي والتحليل السوسيولوجي مجلة إضافات العدد 14 مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 2011 ص146.

9- الجابري محمد عابد العقل الأخلاقي العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط2 فبراير 2006 ص449- 453.

10- التليلي العجيلي نفس المرجع ص32.

11- عبد المنعم القاسمي الحسني أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى دار الخليل الجزائر ط1 2005 ص194.

12- مخلوفي محمد التصوف دراسة تحليلية نقدية دار الأخوين سليكي طنجة ط1 أبريل 2013 ص252.

13- خليل شرف الدين ابن خلدون منشورات دار الهلال بيروت 2007 ص 161.

14- الجابري محمد عابد نفس المرجع ص454.

15- خليل شرف الدين نفس المرجع ص161.

16- خليل شرف الدين نفس المرجع ص164- 165.

17- الجابري محمد عابد نفس المرجع ص450- 453.

18- سعد الله أبوالقاسم تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الرابع دار البصائر الجزائر 2007 ص08.

19- محمد مخلوفي نفس المرجع ص253.

20- محمد مخلوفي نفس المرجع ص259.

21- منصف عبد الحق أبعاد التجربة الصوفية إفريقيا الشرق المغرب 2007 ص302- 303.

22- أبوالقاسم سعد الله نفس المرجع ص12.

23- حسن مرزوقي نفس المرجع ص23- 24.

24- عامر النجار نفس المرجع ص20.